الثقافة الإسلامية في السودان الغربي

د. عبد الفتاح سعيد سيسي
جامعة الآداب والعلوم الإنسانية - بماكو/ مالي

كان للإسلام الفضل الأكبر في نقل اللغة العربية إلى أماكن كثيرة في إفريقيا، وبخاصّةٍ في إفريقيا جنوب الصحراء، حيث ارتبط ظهور اللغة العربية وانتشارها بدخول الإسلام تلك المنطقة[1] على أيدي فقهاء تجار العرب.

(١) انظر: اللغة العربية في مدينة تمبكتو بمالي، عبد الفتاح سيسي، ص٦١، أطروحة ماجستير، كلية الدعوة، طرابلس ليبيا، ٢٠٠٤م.

لقد حمل هؤلاء التجار لواء الإسلام على عاتقهم لتعليم المجتمع السوداني معالم الدّين الإسلامي ومبادئه، وتعريفهم الآداب الإسلامية وقواعد الدّين، وتعليم اللغة العربية بوصفها الأداة الضرورية لمعرفة كلّ ذلك، وتنظيمهم على أُسسٍ جديدة من شأنها ترسيخ العقيدة الصحيحة في مجتمع السودان الغربي.

وكانت الممالك الإسلامية التي قامت في السودان الغربي منفتحةً على العالم الإسلامي، ووصل هذا الانفتاح أوْجَه في عصر مملكة سُنغاي الإسلامية، وبخاصّة في عهد ملوك أسرة الأساكي، الذين فتحوا الباب على مصراعيه في وجه العالم الخارجي، الأمر الذي ساعد كثيراً على الانفتاح على الثقافة العربية الإسلامية، والاحتكاك بها بشكلٍ كبير، فذاعت شهرة المنطقة، فشدّ إليها العلماء والفقهاء رحالهم، وقصدوها من كلّ حدبٍ وصوب، وبخاصّة المراكز الثقافية كـ: تمبكتو، وجني، وكانم.. وغيرها، التي عُدّت مأوى العلماء[1]، فتلقتهم على الرّحب والسّعة، على اختلاف مواطنهم، وعملوا بانسجام مع العلماء المحلّيين على تنشيط الحركة العلمية؛ التي صهرت بوتقتها أخيراً جميع الطاقات.

أهم الروافد التي أسهمت في تنشيط الحركة العلمية بالمنطقة:

أهمّ هذه العناصر الثقافية التي أسهمت في تنشيط الحركة العلمية بالمنطقة؛ ما يأتي:

١- الرافد المحلّي (الإفريقي):

الرافد المحلّي السوداني يمثّل العنصر الأساسي المتين للحركة العلمية في السودان الغربي، وقد يكون أغلبه تكوّن تكويناً محليّاً،

كانت الممالك الإسلامية التي قامت في السودان الغربي منفتحة على العالم الإسلامي، الأمر الذي ساعد كثيراً على الانفتاح على الثقافة العربية الإسلامية

وبخاصّة في تمبكتو وجني وكانم وغيرها، مع ملاحظة أنّ بعضهم رحل إلى الشمال الإفريقي والمشرق العربي، وتتلمذوا على أيدي علمائها الأجلاء، ثم رجعوا إلى أرض الوطن حاملين راية العلم وشعلته، كما يعود النحل مُحمّلاً بالعسل الشهي، فتوسّعوا في نشره بين أبناء جلدتهم بحماسةٍ قوية ومتوقدة، وفي إشارة إلى تأكيد ذلك يقول الدكتور محمد الغربي: «ظهر مؤرخون سودانيون ندين لهم بكلّ الفضل في أغلب ما نعرفه اليوم عن تاريخ السودان، من أمثال أصحاب تاريخ السودان، وتاريخ الفتاش، وتذكرة النسيان. وبرز كُتّاب التراجم، وعلى رأسهم: أحمد بابا، ومؤلفون في الأصول والتفسير، والمسائل [الفقهية] وعلوم اللغة، وأدباء وشعراء.. أعطوا للحركة العلمية دفعاً جديداً»[2]، وبذلك غدَا هذا العنصر من الدعائم القوية والثابتة التي ارتكزت عليها الحركة العلمية في السودان الغربي.

٢- الرافد المغاربي من الشمال الإفريقي:

يمثّل أعلام العرب من الشمال الإفريقي الرافد الغالب من جملة الوافدين في الحركة

(١) انظر: تاريخ السودان، عبد الرحمن بن عمران بن عامر السعدي، نشر هوداس وبنوا، باريس ١٩٦٤م.

(٢) بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص٥٢١، ط١، مؤسسة الفليج الصفاء الكويت.

العلميـــة بمنطقة الســـودان الغربـــي[١]، وذلك نظراً لقربها من الشـــمال الإفريقي، وللصلات التاريخيـــة القديمة بين الشـــمال ومدن غربي إفريقيا، الأمر الذي عزّز من عمق تلك الروابط ومتانتها، ومنحها دفعاً جديداً وقويّاً، مثلما أتاح لها فرصاً فسيحة للانطلاق والتحليق نحو أبعادٍ شاسعة وآفاقٍ رحبة.

ومنذ هـــذا التاريـــخ؛ فإنّ علماء الشـــمال الإفريقـــي كانوا يقصدون مـــدن إفريقيا جنوب الصحراء للإقامـــة بها، بصورةٍ دائمة أو مؤقتة، وبذلك شـــكّل هذا العنصر أحـــد أهمّ عناصر الحركة العلمية في الســـودان الغربي، وما تزال السلالة المنحدرة من الشمال الإفريقي مقيمة فيها إلـــى يومنا هذا، كآل: الكونتا والأعراف[٢]، الأمر الذي كان له دورٌ كبيرٌ في تنشيط الحركة العلميـــة مـــن خلال تواصـــلٍ ثقافيٍّ حـــيّ بين الطرفَيْن، مما جسّـــد قدراً من ظواهر التفاعل الإيجابي بين سكان المنطقتَين.

٣- الرافد الأندلسي:

الواقـــع هو أنّ هذا الرافد بـــدأ يهاجر إلى مناطق الســـودان الغربي في أزمـــانٍ متباعدة، يتعذّر ضبطها تاريخيّاً، كـ: أبي إسحاق الساحلي الأندلســـي الذي بنى مســـجد الجامـــع الكبير في تمبكتو[٣]، حيث قدم إلى تمبكتو مع مَنْسَـــا موسى بعد حجّته المشـــهورة سنة ١٣٢٥م، كما عملت مجموعةٌ أخرى من الظروف على دفعهم للتوافد إليها؛ أهمّهـــا تلك النكبة التي أدّت إلى ســـقوط الأندلس على أيدي الفرنجة، فقد قدم عددٌ منهم إلى المنطقة، وسكن بعضٌ منهم فيها نهائيّاً، ونظراً لمـــا كان يحظى به هؤلاء العلماء مـــن الاحتـــرام والتقدير، وحرارة الاســـتقبال، وحفاوة الاســـتضافة، فضّلوا البقاء والإخلاص في التدريس ونقل المعرفة، فأحاط بهم الطلاب من كلّ جانـــب، بحفاوةٍ كبيرة وعناية شـــديدة، واستفادوا منهم أيّما استفادة.

٤- الرافد القادم من المشرق الإسلامي:

قام هـــذا الرافد بدورٍ عظيم في تنشـــيط الحركة العلمية في السودان الغربي، انطلاقاً من الصلات الثقافية والتجارية بين المشرق ومنطقة السودان الغربي، منذ عصر المماليك في مصر، مما جعل علماءه يتوافدون إلى المنطقة طواعية، أو بطلبٍ من الســـلاطين؛ الذين لم يتردّدوا في الاعتمـــاد على العلماء في الحكم، وتنصيبهم في مناصب إدارية مرموقة، الأمر الذي جعل المنطقة تحظى بعناية المشـــارقة، كما أنّ عدداً من طلبة الســـودان وعلمائها رحلوا إلى المشرق للدراسة، مما أسهم في تبادل العلماء بين الطرفَيْن.

كما كان لرحلة منســـى موسى إلى الأراضي المقدّسة، ومروره بـمصر، أكبر الأثر في جذب انتباه العديد من النُّخبة المثقفة بالمشـــرق إلى الإقبال على الرحلة إلى القارة الإفريقية، حيث تبع حجّة منسى موســـى رحيل علماء من مصر والحجاز إلى المنطقة كـ: عبدالرحمن التميمي من الحجـــاز، ومن الجـــهـــة الأخـــرى: رحيل علمـــاء أفارقـــة إلـــى مصر[٤]، مـــن أمـــثال:

(١) انظر: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي، ص١٦، تحقيق عبدالحميد عبدالله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس ٢٠٠٠م؛ إزالة الريب والتفريط في ذكر المؤلفين من أهل التكرور والصحراء وشنجيط؛ السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية، صفحات متفرقة.

(٢) انظر: البرابيش بنو حسان، بول مارتي، تعريب. محمد محمود ولد ودادي، ص٩، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، ١٩٨٥م؛ التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي، ص١٦٩، ط١، دار الواد طرابلس، ٩٩٦م.

(٣) انظر: اللغة العربية في مدينة تمبكتو بمالي، عبد الفتاح سيسي، ص٢٣١، مرجع سابق.

(٤) الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، حسن أحمد محمود، ص٢٢٥، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٣م.

أحمد بن عمر أقيت، ومحمد محمود بغيغ، وغيرهما[1]، فأسهمت رحلات العلماء، بين المشرق والغرب السوداني، في تنشيط الحركة العلمية وتطويرها وازدهارها في واقع المشهد الثقافي الإفريقي.

فإذا كان ما تقدّم نماذج عن أهمّ العناصر التي قامت بدورٍ بارز في تنشيط الحركة العلمية في السودان الغربي وتثبيتها، فماذا عن المجالات التي ازدهرت فيها تلك الحركة؟

المجالات التي ازدهرت فيها الحركة العلمية:

منطقة السودان الغربي معروفة بارتباطها بالإسلام منذ دخوله إليها، وتُعدّ مراكزها أهمّ المراكز الثقافية الإسلامية التي أسهمت في استقرار الحركة العلمية والثقافة الإسلامية في غربي القارة الإفريقية، كما كان لأهل هذه المنطقة دَوْرٌ كبير في الإقبال عليها بشغفٍ عظيم، والعمل على تطويرها ونشرها، وبلغت الحركة العلمية مرحلتها الذهبية في القرن العاشر الهجري (١٥ و١٦ الميلادي)[2]، في ميادين عدّة، حيث إنّ المؤلفين الأفارقة ألّفوا كثيراً من الكتب في معظم الفنون، ولهم تقييدات ومختصرات كثيرة، وشروح وتعليقات مفيدة، كما جمعوا غالباً بين المسائل الفقهية والأصولية في كتابٍ واحد، يقول الدكتور علي القاسمي: «إنّ علماء السودان الغربي أثرَوا اللغة العربية، بما ألّفوه من أبحاث ودراساتٍ قيّمة في شتّى مجالات المعرفة»[3].

وأهمّ تلك الجوانب التي أثْرَاها علماء السودان الغربي بالتأليف، وازدهرت فيها الحركة العلمية باللغة العربية، تتضح في الآتي:

أ- علوم الشريعة:

تُعدّ العلوم الشرعية من أهمّ المجالات التي ازدهرت فيها الحركة العلمية في السودان الغربي، وذلك لِمَا يُكنّه الأفارقة من تقديرٍ وافرٍ للإسلام وعلومه المتنوعة، حيث إنّ ذلك الاهتمام الكبير بفنون العلم المختلفة، التي تضلّعوا فيها جاء من منطلقٍ دينيٍّ بحت، فالإسلام- بطبيعة الحال- هو العامل المحرّك الذي دفعهم إلى القيام بذلك الدَّور الريادي في تنشيط الحركة العلمية؛ لذا من الطبيعي أن يكون للعلوم المتصلة بالشريعة الإسلامية نصيبُ الأسد في تلك الحركة، ذلك أنّ الإسلام الذي انساب من المنابت العربية قد توغّل بثقافته المتدفقة في أعماق حياة المجتمع الإفريقي، كغيره من المجتمعات المسلمة، وامتزجت تعاليمه بوجدان أهله ومشاعرهم، ومن ثمَّ أدرك الإنسان الإفريقي لحياته قيمةً حضاريةً غير معهودة، فاندفع بذلك يتلمس السبيل إلى تعميق صلته بتلك العلوم الدينية التي فجّرت في أعماقه وحياته عوامل الإبداع والتألّق.

ومَن تتبع تراجم علماء المنطقة، مثل الذين تحدّث عنهم أحمد بابا التمبكتي في (نيل الابتهاج بتطريز الديباج)، والسعدي في كتابه (تاريخ السودان)، وغيرهما من علماء التراجم، يُدرك تمام الإدراك أنهم علماء متضلّعون في الفقه، وبخاصّة الفقه المالكي، والعقيدة والحديث وعلومه، والتصوف[4].. وغيرها من

(١) الثقافة العربية الإسلامية وانتشارها في غربي إفريقيا، نعيم قداد، مجلة المعرفة، العدد ١١، ص٤٩، السنة الثانية.

(٢) انظر: اللغة العربية أعلامها وثقافتها في مال حتى نهاية القرن العاشر الهجري، ص٢٣٠، رسالة ماجستير، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس- ليبيا ١٩٩٨م.

(٣) العلاقة بين اللغة العربية وشقيقاتها اللغات الإفريقية، ص٥٤، ط١، المكتبة العصرية، صيدا بيروت ١٩٨٧م.

(٤) لشدة ولعهم بالصوفية؛ كانوا يتناولون بعض الموضوعات النحوية، ويشرحونها بالطريقة الصوفية، إلى جانب الصيغة النحوية، مثال ذلك في باب (التنازع في العمل) يقول ابن مالك:

العلوم الشـــرعية، حتى إنّ درجتهم العلمية في هذا المجال قد تقدّمت إلى مراحل متطورة في النشاط العلمي والميدان المعرفي، فلم يقتصر ذلـــك النتاج العلمي كلّه على التركيز في شـــرح كتاب، أو حاشـــية لمصنـــف[1]، مقلّدين أعمال علماء آخرين، دون الخوض في دراســـة صميم الموضوعات، كما روّج بعض الباحثين الغربيّين أمثال المستشـــرق ألفونس غيي الذي أشار إلى ذلك قائـــلاً: «كانت أعمالهم تـــدور في صورة مخطوطـــات، وكانت أعمالهم هـــذه تمثّل بعض الدراسات النحوية والفلسفية [التفسير]، ووضع شـــروح لبعض الكتب الدينية، وإعداد الخطب، ومناقشة بعض المسائل الفقهية»[2]!

ويكفي للـــردّ على هذا وأمثالـــه: ما تذخر به مكتبات المنطقة مـــن الثقافة المكتوبة التي عرفهـــا الســـودان الغربي منذ قـــرون طويلة، فآتت ثمراتها يانعة، فـــي الوقت الذي كان فيه الأوروبيون يشـــنّ بعضهم الحـــرب على بعض، وهذا ما ذهب إليـــه المنصف للأعمال العلمية لعلماء الأفارقة: عبد الفتاح مقلد الغنيمي، حين قال: «وقد ظهرت حركة العلم واسعةً وقويةً في الســـودان الغربي، في وقتٍ لـــم يكن العالم قد بدأ يسمع عن أوكســـفورد وكامبريدج وباريس، وغيرها من جامعات أوروبـــا، وظهرت حضارةٌ إســـلامية متطورة ونامية، آخذةً بأسباب الرقي والتحضّر؛ في وقتٍ كانت أوروبا تخوض حروباً فيما بينها»[3].

ومما يؤســـف له أنّ هذه الجهـــود لا يزال أغلبهـــا مخطوطاً، عرضـــةً للتلـــف وعاديات الزمن، ولو اهتمت الـــدول والمنظمات العلمية، ذات القدرات الاقتصادية والإمكانيات المادية، بهذه المخطوطات[4]؛ لأفادت العالم أجمع بتلك الكنوز، التي لا تزال مغمورةً لم تر النور بعد!

ب- علوم اللغة:

تُعدّ العلوم اللغوية، وبخاصّة النحو والصرف والعروض منهـــا، أهمّ المجـــالات العلمية التي حظيت بازدهارٍ فائقٍ في الســـودان الغربي، فقد أورد أحمد باباً، والسعدي، ومولاي أحمد بابير، وأحمد بلعراف التكني، مجموعةً كبيرة من علماء اللغة، من خلال تراجمهم، ووصفوهم بعُلو الكعب، وبلوغ القمّة في علوم اللغة وأسرار البيان.

إنْ عَامِلَانِ اقْتَضَيَا فِي اسْمٍ عَمَلْ قَبْـلُ؛ فَلِلْوَاحِـدِ مِنْهُمَـــا الْعَمَـــلْ

فالمراد بالعاملَيْن- على الطريقة الصوفية-: هو العامل للدنيا والعامل للآخرة، وإذا اشترك هذان العاملان في صفة العمل: فإنّ أهل البصيرة اختاروا عمل الآخرة، واختار غيرهم عمل الدنيا.

أما عن الصيغة النحوية: فهي عبارة عن توجّه عاملَيْن إلى معمول واحد، نحو: (كتب وبعث صاحبك صحيفته)، فأحد العاملَيْن يعمل في ذلك الاسم الظاهر باتفاق الجميع، فذهب البصريون إلى عمل الأول لقربه، وذهب الكوفيون إلى الثاني لتقدّمه. انظر: (تنبيه المادح المقلّد على ما كان عليه سلف تنبكتو)، محمود محمد ددبّ، ص٤٧، غير منشور، مخطوط بخزانة المؤلف، الألفية في النحو، محمد بن مالك الأندلسي، ص٢٧، ط٢، منشورات دار الإيمان، دمشق ١٤٢١هـ؛ تيسير وتكميل شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، إعداد فئة من المدرسين، قدّم له: محمد علي السلطاني، (٢/٢١١)، ط١، دار العصماء، دمشق١٩٩٧م.

(١) انظر: مملكة سنغاي في عهد الأسقيين (١٤٩٣-١٥٩١م)، عبد القادر زبادية، ط١، ص (٥٢٢، ٥٢٣)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧٤م.

(٢) L'islam dans L'Afrique Occidental Française, Alphonse gouille, p.224, Edition La rose, Paris 1952.

(٣) الحركة الفكرية والثقافية في سنغاي، عبد الفتاح مقلد الغنيمي، مجلة الفيصل، العدد٨٩، ص٨١، المملكة العربية السعودية، ١٩٨١م.

(٤) وذلك نظراً إلى أنّ الثقافة السائدة اليوم في البلد ثقافة فرنسية استعمارية، فلا تُعير اهتماماً للثقافة والعلم المكتوب باللغة العربية، بل معظم مثقفي مالي اليوم ينظر إليها على أنها تراث لا يستحق الاهتمام، لدرجة أنهم لا يكادون يعرفون شيئاً عن العلّامة أحمد بابا، ولا عن أعماله العلمية، في وقتٍ تكاد تكون لديهم دراية شبه شاملة بالفلاسفة الغربيين العلمانيين الملحدين.. للأسف الشديد!

وربما يرجع هذا الاهتمام البالغ بالعلوم اللغوية إلى اعتبارها الأداة الأساسية في فَهْم العلوم الشرعية ومقاصدها، لذا انكبّوا على دراستها بحماسة شديدة؛ لمعرفتها تمام المعرفة، فأثرَوها بمؤلفاتٍ قيّمة، غايةً في السهولة والمرونة، وإن كانت آثار التقليد في بعض الأحيان باديةً عليها[١].

ولا عجب في هذا الاهتمام الكبير بالعلوم اللغوية؛ لأنها- كما بيّنا سالفاً- المفتاح الأساسي للوقوف على فَهْم مصادر الشريعة، ومعرفة مقاصدها، والغوص في عمقها، واكتشاف دُررها، وفي تأكيد هذا يقول ابن فارس: «العلم بلُغة العرب واجبٌ على كلّ متعلّق من العلم بالقرآن والسنّة والفُتيا... وذلك أنّ القرآن نازل بلغة العرب، ورسول الله r عربي، فمن أراد معرفة ما في كتاب الله- عز وجل- وما في سنّة رسول الله r؛ من كلّ كلمة غريبة، أو نَظْم عجيب، لم يجد من العلم باللغة بُدّاً»[٢].

ج- الأدب:

تعدّ الدراسات الأدبية إحدى أهمّ الوسائل التي تساعد على فَهْم العلوم الدينية، وأسرار العربية، ولمّا كان الأمر كذلك؛ فإنّ علماء السودان الغربي اعتنوا بها اعتناءً كبيراً، وبخاصّة المنظوم والمنثور منها، وخصوصاً عندما بدأت شخصيات أدبية كبيرة في التوافد عليها من المشرق الإسلامي وشمال إفريقيا، ممن اختاروا السكنى[٣] في السودان الغربي، أمثال: عبد الرحمن التميمي، سيدي يحيى التادلسي، فياض الغدامسي، إسحاق التواتي، ومنصور الفزاني، وسالم بن عبيدة المصراتي[٤]، وغيرهم من الشخصيات الأدبية، الأمر الذي يؤكد أنّ السودان الغربي قد شهدت نشاطا أدبيّاً، واكب مسيرتها العلمية، وكان لصولته فيها صدًى قويٌّ أفضى إلى تطوّره في العصور اللاحقة، لدرجةٍ أصبح الكثير من العلماء والطلبة يحفظون دواوين الشعراء، ويستشهدون بأشعار وكتابات شعراء العرب، فحاولوا بهذا أن يقلدوا الأدباء القدامى في نَظْم الشعر وكتابة النثر، فتركوا جملة من القصائد الأدبية.

وقد ذهب أحد الباحثين إلى أنّ النشاط الأدبي في السودان الغربي «بلغ نموّاً كبيراً، وإشراقاً لامعاً، نبغ فيه رجالٌ لا ينازع في مقدرتهم أحد... متناولين مختلف المعاني البيانية والمحسنات البديعية وغيرها»[٥]، وذلك بالرغم من أنّ معظم مَن نَظَم تلك القصائد فقهاء؛ عُرفوا في مجال الفقه أكثر من ميدان الأدب[٦].

---

(١) ربما يرجع سبب هذا التقليد إلى حرصهم الشديد على المحافظة على اللغة كما جاءت من منابتها الأصلية، والخوف من التحريف.

(٢) الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عمر فاروق الطباع، ص٨، ط١، مطبعة المعارف، بيروت، ١٩٩٣م.

(٣) الأدب العربي في تنبكت من خلال خزائنه النصية إلى نهاية القرن العاشر الهجري (السادس عشر إفرنجي)، سمبي خليل ماغاسوبا، ص١٤٣، رسالة ماجستير غير منشور كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس ٢٠٠١م.

(٤) انظر: تاريخ الفتاش، محمود كعت، ص٥٢؛ نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص٦٠١، مصدر سابق؛ تاريخ السودان، ص (٢٢-٢٣، ٥٨-٦٠)، مصدر سابق.

(٥) الأدب العربي في تنبكت، ص١٥٣، المرجع السابق.

(٦) بما فيها القصائد التي درسها الباحث سمبي ماغاسوبا في رسالته كقصائد: سيدي محمد المختار الكنتي، وسيدي يحي الكنتي، وإبراهيم أحمد بغيغ، وغيرهم، التي هي عبارة عن قصائد مبثوثة هنا وهناك، لم تجمع في دواوين متكاملة، انظر: المرجع نفسه، ص١٤٥، فما بعده.

ومن تلك القصائد قصيدة أحمد بابا التمبكتي الذي كان لتلك النكبة التي مرّت بها نفسه أعمق الآثار فيها، فعبّر عن الحنين إلى وطنه تمبكتو، حينما كان منفيّاً في العاصمة السعدية مراكش، وجاء في مستهلّها:

أَيَا قاصداً كاغوْ فَعُج نَحوْ بَلْدَتي
وَزَمْزِمْ لهم باسْمي وبَلِّغْ أَحِبّتي
سَلاماً عَطيراً مِنْ غريبٍ وشائقٍ
إلى وطن الأَحْبابِ رَهْطي وجيرتي
وعندي أقاربُ هناكَ أعِزَّةٌ
على السَّادة الأُلى دُفِنَتْ بغُرْبَتي
أبي زيد هم شَيْخُ الفضائل والهُدى
وصِنوُ بني عمِّي وأقربُ سادتي
وسيفي فَسَيْفُ البَيْن سُلَّ لفَقْدهمُ
عليَّ وهَدَّ المَوتُ رُكني وعمْرتي
ولا تنس عبدَ الله ذا المجد والنّدَى
فقد مدَّ حُزنّي فقْدُ قوتي وعشرتي
وشبَّانُ بَيتي سارَعُوا عن أخيرهم
إلى مَلك الأملاك في وقت غربتي
فوَا أسفاً منهُم وحُزني عليهُم
فيا ربِّ! فارحَمهُم بواسع رحمة[1]

وقصيدة سيدي يحيى التادلسي وهو يرثي شيخه: محمد مودب محمد الكابري، في اثنين وعشرين بيتاً، وصَفَ فيها مكانة هذا العالم، وذكر أنه من العلماء البارزين المشهورين، بما كان يسلكه من طريقة الشرح وتوضيح المعاني، والأسلوب المبسّط، والتعمّق في الدروس، ومن تلك الأبيات:

أَطُلابَ علم الفقه؛ تدْرون ما الذي
يُثيرُ همومَ القلبِ من كلِّ وافدِ
يُثيرُ هُمومَ القلب فَقْدُ سميدعٍ[2]
فقيه حَليم حامل للفرائدِ
وفتّاق تهذيب بحُسن الفوائدِ
بحُسْن تعليم مُقرّب فَهْمه
رباطاً طباراً أمره في التزايدِ
محمد الأستاذ مؤدِّب ذي النُّهَى
فيَا عجباً! فهل بعدَه من معين
ويا عرباً فهل بعده من مجالد[3]

فهذه الأبيات توضّح لنا الطريقة التي يتّبعها هذا العالم الجليل في التدريس، وصبره على المناقشة في المسائل المختلفة مع طلابه؛ حتى يتمكّنوا من بلوغ أهدافهم من التحصيل.

وقصيدة محمد بابا بن محمد الأمين في مدح يحيى الولاتي، وهي:

نيل الرَّباح أو النّجاح السَّرْمدي
والسَّيْرُ في النَّهج القويم السَّرمدي
فازت به (تمبكتو) دون مغاربَ
ومشارق من كلِّ قُطرٍ أبعدِ
فتباشرت أيامُها وتشامخت
أعلامُها من راسيات رُكّدِ
وبحبِّها من فضله أرجاؤها
محمولُ سرِّ الوحي نورُ المهتدي[4]

وأمثال هذه القصائد موجودة بشكل غير منظّم في أثناء الكتب والمخطوطات بالمئات؛ إن لم نقل بالآلاف. هذا وإضافة إلى تلك،

(١) انظر: نزهة الحادي بأخبار ملوك الحادي، ص٩٨، مصدر سابق، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، ص١٥٨، مرجع سابق.

(٢) سميدع: بفتح السين والميم: السيد الكريم، الشريف السخي، الموطأ الأكناف، والشجاع والذئب، والرجل الخفيف، والسيف. تطلق على كلّ هذه المعاني لغةً، انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، فصل/ السين، باب/ العين، (٤٠/٣)، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٧م.

(٣) تاريخ السودان، ص٤٩، مصدر سابق، مملكة سنغاي، ص١٤٩، مرجع سابق.

(٤) بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص٥٤٥، مرجع سابق.

هناك روايات من قبل بعض الباحثين[1] تشـــير إلى وجود إنتاجٍ أدبيٍّ رفيع المســـتوى في شكل قصصٍ كُتبت على شاكلة (مقامات الحريري).

د- التاريخ:

لمّـــا كان علم التّاريخ أهمّ العلوم التي يعرف الخلف بها أخبار أسلافهم وأجدادهم؛ فإنه قد حظي بإقبالٍ منقطـــع النظير من طرف النُّخبة الإفريقية المثقفة، مما أدّى إلى إثرائه بمؤلفاتٍ خاصّة في تغطية أحداث المنطقة بشـــكلٍ عامٍ، الشـــيء الذي كان له دورٌ كبير في تفعيل ظاهرة نشـــاط الحركة العلمية العربية وازدهارها؛ من خلال جهـــود هؤلاء العلماء في هـــذا المجال. وقد عُدّت المصنفات في هذا الميدان من أهمّ المصـــادر المعتمدة والأساســـية- التي لا غنى عنها لأي باحثٍ- في معرفة تاريخ بلاد السودان الغربي كلّه، ومن أهمّ تلك المصنفات:

- تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر النّاس، لمحمود كعت التنبكي.
- تاريخ السودان، للشـــيخ عبد الرحمن بن عبد الله السعدي التمبكتي...

وغيرهما.

وهكذا يتبيّن لنـــا ازدهار الحركة العلمية في الســـودان الغربي في هـــذا المجال، إذ لولا ذلك النضج العلمي في تناول التّاريخ الإفريقي؛ لأصبح جزءٌ كبير من تاريخ الإنسانية مغموراً، وفي تأكيد ذلـــك يقول محمد الغربي: «وقـــد ظهر مؤرخون ســـودانيون ندين لهم بـــكلّ الفضل، في أغلب ما نعرفه اليوم عن تاريخ السودان، من أمثال: تاريخ السودان، تاريخ الفتاش، وتذكرة النسيان»[2].

ه- التراجم:

حظيت التراجم هي الأخرى باهتمام الفقهاء والعلماء، نظراً لعنايتهم الكبيرة بتســـجيل تاريخ العلمـــاء والفقهاء والقضاة والملوك والرؤســـاء والتعريف بهم[3]، وقد برع علماء السودان الغربي وغيره في هذا المجال، وابتكروا فيه أيّما ابتكار، وبخاصّـــة تراجم العلماء، فأنتجـــوا فيه إنتاجاً رائعـــاً رائقاً؛ تمثّل في مصنفاتٍ نفيســـة، عُدّت من أهمّ المصادر الأساســـية في معرفة علماء السودان وتاريخهم.

ومن أنفس ما كُتب في هذا المجال:

- نيـــل الابتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا التمبكتي، وهو ذيلٌ على كتاب:
- الديباج في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون المدني.
- ومنح الربّ الغفور فيما أهمل صاحب فتح الشكور، لأبي بكر بن أحمد المصطفي الولاتي.
- وإزالة الريب والشـــك والتفريط في ذكر المؤلفين من أهل التكـــرور والصحراء، لأحمد بلعراف التكني.
- والســـعادة الأبدية في التعريـــف بعلماء تمبكتو البهية، لمولاي أحمد بابير.

ومما لا يدع مجالاً للشك: أنّ هناك مجالات أخرى غير ما ذكرنا، ازدهرت فيها الحركة العلمية في الســـودان الغربي كـ: علم الطب، وعلم الفلك مثلاً[4]، خاصّةً إذا أدركنا مدى اهتمام المجتمع الإفريقي بهما لحاجته الملحة إليهما في شؤون العلاج، وظروف السفر، وغيرهما كثير.

---

(١) محمد محمود ددبّ: باحث ومؤرخ وأديب تمبكتي في مقابلة معه ببيته، مساء يوم الأربعاء الموافق: ٢٠١٣/٠٦/٠٤م.

(٢) بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص٥٢١، مرجع سابق.

(٣) انظر: مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، ص (١٥٩، ١٦٣)، مرجع سابق، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص (٥٣٧، ٥٣٩)، مرجع سابق.

(٤) انظر: التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا، علي عبد الله الاخاتم، مجلة الدراسات الإفريقية، العدد الثالث، ص٣٤، سنة ١٩٨٧م.

أسلوب الكتابة:

تميّز أسلوب الكتابة في السودان الغربي- في جانبٍ منها- بالتعبير عن المراد بألفاظٍ واضحة، بعيدةٍ عن اللّبس والغموض، لغرض توصيل الفكرة وتوضيحها بدقّة، دون مراعاة البناء الهيكلي المؤثّر الجذّاب، الأمر الذي جعل معظم الكتاب لا يتحرّجون في استعمال بعض الكلمات المحلية (الدارجة)؛ ليفهمها المتلقّي، أو جملٍ ملتوية[١].

غير أنّ معظم المؤلفين وصل إلى درجة التناسق والتآلف في أداء المعاني التي يتطلبها الموقف الذي سيق الأسلوب للتعبير عنه، ويمكن أن نلمس ذلك بوضوحٍ في معظم مؤلفات علماء الأفارقة كـ: (تاريخ السودان) للسعدي، و(مرآة التعريف بفضل العلم الشريف) لأحمد بابا التمبكتي، و(الأجوبة المهمة في المسائل الملمة) لسيدي المختار الكنتي، و(وقاية المتكلم من الخطأ المثلّم) لمحمد بن باد الوافي، وغيرها من الكتب والمخطوطات التي يمكن أن نلمس فيها ذلك الأسلوب العربي البديع بشكلٍ عام.

وهذا نموذج من ذلك، يبيّن فيه صاحبه دوافع ترجمته لعلماء المنطقة وأعيانها، فيقول: «... ولمّا رأيت انقراض ذلك العلم ودروسه، وذهاب ديناره وفلوسه، وأنه كبير الفوائد، كثير الفرائد، لما فيه معرفة المرء أخبار وطنه، وأسلافه، وطبقاتهم وتواريخهم ووفياتهم، فاستعنت بالله- سبحانه- في كَتْبِ ما رأيت من ذكر ملوك السودان أهل سنغي، وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم، وذكر تمبكتو ونشأتها، ومَن ملكها من الملوك، وذكر بعض العلماء والصالحين الذين توطّنوا فيها، وغير ذلك إلى آخر الدولة الأحمدية العباسية، سلطان مدينة الحمراء مراكش...»[٢].

فمما لا شك فيه؛ أنّ هذا النموذج يجسّد حقيقة مدى روعة الأسلوب السوداني في الكتابة، خاصّةً إذا أخذنا في الاعتبار أنّ صاحبه ليس بعربي، وإنما هو إفريقي تمبكتي، اجتهد في دراسة اللغة العربية حتى تمكّن منها.

وقد بلغ فنُّ الكتابة في السودان الغربي أَوْجَه مع العلّامة أحمد بابا، الذي امتاز أسلوبه بالمتانة والجزالة والموضوعية العلمية، وغزارة ثروته اللغوية، يقول في مقدّمة كتابه (نيل الابتهاج)، الذي أشرف على تحقيقه ونشره الباحث الليبي الدكتور عبد الحميد الهرامة- في إشارة إلى الدوافع التي حدت به إلى التأليف في هذا الموضوع حالة إقامته منفيّاً في مراكش بالمغرب-: «فما زالت نفسي تحدّثني من قديم الزمان، وفي كثيرٍ من ساعات الأوان، باستدراكي عليه [ابن فرحون المدني، في كتابه: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب] ببعض ما فاته، أو جاء بعده من أئمة الأعيان، فقيّدتُ فيه بحسب الإمكان، حين كنتُ ببلد بعيدة عن نيل المقصد من ذلك، لبُعدها عن مدن العلم، وكُتب هذا الشأن، فقصر بي الحال مع عدم مساعدة الزمان، لما بُلينا به من حوادث الوقت، وفتنة تشغل عن كلّ فرض، وترمي بشرر كالقصر في الطول والعرض»[٣].

وبذا يتجلّى لنا مدى جزالة الأسلوب الإفريقي التمبكتي، وقدرة علماء السودان الغربي على صياغة الأفكار في قالبٍ فنيٍّ جميل.

هذا، ولقد بارك الدكتور محمد الغربي منهج أحمد بابا وأسلوبه في جزالته ورقيّه العلمي

(١) يكفي في الإشارة إلى أمثلة من هذا النوع بعض النصوص المقتبسة من المصادر السودانية؛ المبثوثة في هذا البحث.

(٢) تاريخ السودان، ص٢، مصدر سابق.

(٣) نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص٢٨، مصدر سابق.

قائـــلاً: «وأهمّ ما امتازت بـــه أعمال أحمد بابا في هذا المجال: عمق النظـــر، وغزارة المادّة، مع تجنّب الإسفاف أو الاستطراد، وقدرة كبيرة على الترتيب»[١].

ويُدلي علي عبد الله الخاتم بتقييمه لجملة الأساليب الســـودانية قائلاً: «... وكان لبعضهم أساليب مميزة، أعطت مؤلفات قيِّمة ومشهورة، وبين أيدينا أربعون مخطوطة من مؤلفات أحمد بابا إمام تمبكتو»[٢].

وهـــذا مع الاعتراف بـــأنّ بعضها- أحياناً- يعانـــي من الرّكاكة في إيصال الفكرة بالشـــكل الذي نـــراه في بعض النصوص المقتبســـة من بعض المصادر المهمّة كتاريخ الفتاش مثلاً.

وهكـــذا يتبيّن لنا، من خـــلال هذا العرض المتواضـــع، أنّ الحركة العلمية في الســـودان الغربي ازدهـــرت في معظم العلوم الشـــرعية واللغويـــة، وبخاصّة النحـــو والصرف، والآداب، ومجال التاريـــخ، والتراجم، وأســـلوب الكتابة، وذلك نتيجة الاهتمام البالـــغ بها، كما بيّنا أنها في أغلب الأحيان قد تحرّرت من ربقة التقليد، حيث ألّف العلماء الأجلاء مصنفاتٍ مهمّة، عُدّت من المصادر المهمّة التي لا غنى عنها لأي باحثٍ يدرس اللغة العربية في غرب القارة الإفريقية.

الخلاصة:

أنّ هذه الدائرة (الســـودان الغربي)، منذ أنّ دخلتها الثقافة العربية الإسلامية، أقبل علماؤها عليهـــا إقبال الصِّـــداء على المـــاء ينهلون من معينهـــا، فازدهرت الحركة العلمية أيّما ازدهار، نتيجة استتباب الأمن والعدل والرخاء، فانتشرت المكتبات الخاصّة التي اقتناها العلماء والأثرياء،

أثرى علماء السودان الغربي مجالات عدة بالتأليف باللغة العربية، وهي: النحو والصرف والعروض والعلوم الشرعية والأدب والتاريخ والتراجم

مما جعلت الســـودان الغربي منـــارةً وفَدَ إليها طـــلاب وعلماء من أماكن مختلفـــة، عملوا معاً في تنشـــيط حركة الثقافة العربية، ونَسْج شبكة حضارة الإســـلام في تلك المنطقة، صهرت في بوتقتها أخيراً جميع الطاقات.

وهـــذا يوضّح لنـــا من جرّاء هـــذه الثورة العلمية: أنّ للغة العربية دَوْراً مميزاً لا يُستغنى عنه في اســـتيعاب تلك الثقافة وامتصاصها، ومن ثمّ لزم الاهتمام بها والتعمّق فيها بوصفها أداةً لنقل المعرفة الإســـلامية؛ ليتجاوز نطاق الاهتمام بها تلك المجالات العلمية التقليدية، كي تفرض بذلك نفســـها على واقـــع الحياة الاجتماعيـــة بمبادلاتها العلميـــة، وتفاعلاتها اليومية، ولتصبح اللغـــة العربية كذلك إحدى أهمّ اللغات الإفريقية وأعمّها على الصعيدَين الاجتماعي والثقافي ■

(١) بدية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص٥٤٢، مرجع سابق.

(٢) التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا، ص٣٤، مرجع سابق.